الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

البصرة التي كانت ثغر العراق الباسم

زهير كاظم عبود
قانوني . السويد

لايمكن لوصف أن يجسد معالم البصرة الإنسانية ، فقد امتزج فيها الحلم مع المتعة ، والمروءة مع التاريخ ، والنخيل مع الحلاوة ،واكتسبت صفات أزلية تتسم مع امتداد الماء ، وقيم توارثتها القبائل ورعتها الأديان المتنوعة فيها فزادتها متانة ورصانة ، لاغريب فيها ولاشريد ، قلوب أهلها بيوتهم وملاذ آمن لكل من يطلبه ويلوذ بهم ، ويشعر الإنسان حين يخترق شوارعها العتيقة أنه يختزل الزمن ويعبر صفحات التاريخ العربي ، يتجول بين أبي الأسود الدؤلي وساحة أم البروم ورمال الزبير ، ويعبر بين تخوم الأبلة وبقايا آثار معركة الجمل ، نهر العشار حيث حمل صاحب الزنج رحاله وأغترف من مياهه بيديه ، نقرات الدفوف الشعبية مصحوبة بالصناجات والعرق الناضح من الأجساد ، أو من الكلمات الطيبة المعجونة بالرقة والعذوبة المتفردة ، تعلم أهلها البساطة والسماحة والكرم وحسن المعشر منذ الأزل ، إذ يرضعها البصري منذ الولادة من ثدي الأم ، فتكون تلك الصفات معلما من معالم البصرة ، وصفات مشتركة لايختلف عليها أحد في العراق .

إنها البصرة التي كانت ثغر العراق الباسم ولم تعد كما كانت .

غير أن البصرة ولسوء حظها أن تكون مدينة مطلة على البحر تلفحها نسماته، وشاسعة تحادد دولاً عدة ، وأماكن تدفن قصص التاريخ العربي والإسلامي بين ضلوعها ، ومنتجة تفور تحت ترابها مكامن النفط الخام ، وترسو في موانيها مئات السفن الأجنبية وسفائن التجار الصغار مع أبوامهم المتواضعة وزوارقهم الجميلة ، التي تجيء ومعها بضائع التجار والركاب والأجانب الذين أطلقوا عليها بندقية الشرق أو فينيسيا الشرق كما يقولون .

غير أن البصرة تشرب ماء أجاجا يحرق جدران المريء ، وتكثر فيها جموع الفقراء والذين لايملكون غير لقمة يومهم ، غير أن البصرة مدينة ليست كمدن الشرق ، فهي تبتسم لك برغم كل ويلاتها ، وتبعث في أوصالك الدفء برغم كل ما تشعر به من زمهرير الحكومات التي تناستها وصمت آذانها وأغمضت عيونها عنها .

ورحم الله الشهيد عبد الكريم قاسم ومزهر الشاوي مدير الموانئ العام ، حينما التفتا الى قضية مهمة لم تزل شاخصة حتى اليوم ، حين قررت حكومة عبد الكريم قاسم بناء دور للفقراء في الموانئ ، متواضعة وضيقة ولكنها تضم عوائل الكادحين وصغار الموظفين في المعقل وخمسة ميل والأبلة والميناء ، الفقراء الأكثر انتشارا وعطاءا ووجودا في تلك البصرة الجميلة ، صارت لهم سقوفا وملاذات وتم تمليكهم لها مقابل أقساط مريحة وبسيطة رمزية ، صارت أحياء كاملة منتظمة وجميلة تسكنها تلك المجموعات البشرية حيث أمنت لها سقفا يحميها ، وترك مزهر الشاوي من بعده سفرا خالدا في الانجاز والنزاهة من خلال مؤسسة الموانئ التي أدارها بجدارة وبنزاهة أيضا نفتقدها هذه الأيام ، وخمسون عاما مرت دون أن يتهمه احد بسرقة النفط أو إيرادات الموانئ او اختلاس المال العام، رحل عبد الكريم قاسم ومزهر الشاوي وبقيت آثار أعمالهم على جدران تلك البيوت المتواضعة والالتفاتة الإنسانية الكبيرة ، نقشا أسميهما بحروف كبيرة على صفحات تاريخ العراق الحديث ، وتركا أفكارهما ومشاريعهما الإنسانية على الأرض امتدادا من حدائق المعقل والملعب الرياضي مرورا بحدائق الأندلس والجنينة ، وأرصفة الموانئ ورافعاتها العملاقة وامتصاص البطالة ومرافق الموانئ الخدمية ومطاعمها ونواديها وأماكنها الاجتماعية ، ومطارها المتواضع وفندقها المطل على الشط وجزيرة السندباد وحدائق الخورة والكورنيش وشوارعها التي تزهو وبقيت زاهية ، وصولا الى بيوت الفقراء ومجمعات السكن .

غير أن الشاوي وعبد الكريم قاسم كانا يفكران في أن تكون للبصرة المكانة التي تليق بها ولأهلها الخدمات التي تستحقها ، وأن تأخذ المساحة التي تتباهى بها بين بلدات الدنيا ، لم يسعفهما الزمن لإكمال مسيرتهما ، حيث حل زمن الخراب الأسود في شباط ١٩٦٣ ، وجاء الجراد ليحول البصرة الى حمامات من الدم والخوف والحقد ، ويحول ساحة أم البروم الى ساحة أنس دون أنيس ، ويملأ سجنها بشبابها ، ويوقف كل تلك المشاريع الإنسانية التي كانت تنتظرها مجاميع أخرى ، وتلغى كل المشاريع القادمة بإصرار بالنظر للحقد الكامن في نفوس الحكام والخلل الذي يجتاح ضمائرهم حقدا على الإنسان في البصرة وفي تلك المناطق الفقيرة ، وبقيت البصرة تعطي ولا تأخذ ، تتباهى بكرمها وتكابر أولادها على جوعها ، وتشرب الماء الممجوج قسرا دون أن تشتكي ولن تشتكي وحكامها طرشان لايعون ما يجري تحتهم ؟ وتتراجع الخدمات وتتوقف كل مشاريع السكن التي كانت توفر سقوفا للفقراء وعملاً لتأمين حياتهم ، وتنتشر البطالة وتضيع الفرص وتتكاثر حاجة الناس ، ويتناسل الفقراء في أحياء شهيرة تعج بالفقراء والكادحين (الحيانية والجمهورية وخمسة ميل) ، وتتحول شوارعها الزاهية الى معالم عسكرية ، وتتحول الى منطقة عمليات وجبهة أمامية ، تتلقى صواريخ الجارة التي شن عليها الطاغية تلك الحرب المجنونة التي أتت على ما تبقى من الوجه الجميل للبصرة، فتحوله الى بؤس وخراب ولون أسود يعلوه التراب ، ولافتات من القماش الأسود تتزاحم الواحدة فوق الأخرى ، وبيوت متهدمة وخرائب عافتها اهلها .

وحين سقط الطاغية استبشر ليس البصريون وحدهم أن هناك من سيلتفت لهم وينصفهم ، وهناك من سيخطط ليعيد لهم الاعتبار من زمن هجين حرص على تعذيبهم وحرمانهم من ابسط الحقوق ، زمن سرق أحلامهم وحرم أطفالهم من التمتع بالحياة كما تفعل ا لبشر ، زمن حول مدينتهم الحلوة الزاهية الى متاريس وذبح لنخيل وقطع الأوصال ، وكثرت أحلام العراقيين ببصرتهم التي اعتقدوا أنها ستضاهي مدن مثلها أن لم تكن اقل منها موقعا جغرافيا (دبي مثلا) ، غير أن لدبي عقلها الحاكم ، وشعور حاكمها الوطني ، وحرصه ليس على الأعمار والتنمية فقط ، إنما عقله الواسع من أن تكون دبي ليس فقط لكل اهلها ، إنما تكون ملاذا ومكانا ومستقرا لكل الشركات الأجنبية والاستثمارية ، ومكانا جاذبا يؤمها الأجنبي ويجد ماتتوفر له سبل الراحة والاستمتاع ، ولا تمنعه حكومة دبي من أن يتمتع بحريتها ، ولا تشترط عليه أن يرتدي ملابس محددة أو أن تتبرقع النساء وتختفي معالمها وراء تلك الخيمة السوداء ، حاكم دبي الذي وفر ماء البحر المالح ليتحول الى ماء عذب للاستعمال ، ورمال الصحراء الى بنايات ومؤسسات لمتعة البشر، الحرية التي توفرها حكومة دبي هي حرية العقل الواسع والنظرة الى المستقبل في كيفية تحويل مدينتهم الصحراوية الى جنة يقصدها رجال الأعمال والمستثمرون الأجانب من كل حدب وصوب .

العقل جنة الإنسان ، ولو توفر العقل عند الحاكم لتوفرت الفرص العديدة التي تخدم الإنسان في كل زمان ومكان ، في البصرة أديان متعددة تعايشت منذ نشوء المدينة ، وصار أهل تلك الديانات معلما من معالمها ، المسيحيون من أولادها جزء من طينتها وملوحة مياهها ، وهم يتمسكون ببصرتهم غير أن الظلم حل عليهم في قرارات التطرف الإسلامي والإرهاب المتستر باسم الدين ، فجارت عليهم قرارات لاعلاقة لها بدين أو عقل أجبرتهم على الهروب من بصرتهم فاقتطعوا جزءاً من أرواحهم ، والمندائيون قلادة في جيد البصرة وأريج طيبتها ، وهم جزء لايمكن فصله من جسدها ، جارت عليهم كلاب الحوأب تنهش من أجسادهم باسم الدين ، فذبحت من تريد وهرب الآخرون يحملون معهم ترابها في عيونهم.

وأزداد خراب البصرة وفقرها ، وتناسل الفقراء من دون مشاريع سكن ، ولأن المحاصصة الطائفية خراب العراق الجديد ، صار حكامها ومسؤولوها ضمن صفقات المحاصصة مسؤولين عنها ، وغابت نزاهة عبد الكريم قاسم ومزهر الشاوي ، صارت الاتهامات سجلا كبيرا في سرقات النفط والاختلاسات وسرقة المال العام والفساد الإداري ، وصارت الاتفاقات مع دول الجوار وأستيراد الأسلحة والمتفجرات والمخدرات ، ولم تزل البصرة تشرب ماء ممجوجاً وتتكاثر فيها أحياء الفقراء لتكتسح الرباط وأم الدجاج والحجاج والبصرة القديمة وباب الزبير والحكيمية والرباط، وتتكاثر فيها البطالة والميليشيات التي تشكل كلاً منها دولة داخل تلك الدولة التي غابت عن البصرة .

وتعكزا على تلك المحاصصة صار المسؤول فيها لايفكر بعقلية الناس ، ولا بحرصه على المستقبل ، صار فقط يريد أن يثبت لحزبه أو طائفته انه سيحول المدينة وأهلها وفقا لما يريده الحاكم منهم ،يريد أن يطبق قانونه عليهم وليس كما يريد الناس ، وليس مثلما يرفع الظلم عن أهلها ، وليس ما يوفر الخدمات والحقوق لهم ، وليس مثلما يقول الدستور فقانونه أعلى من دستور العراق .

ضاعت من عمر البصرة خمس سنوات عجاف أخرى فوق ما ضاع منها ، لم تزل تراوح مكانها يكتسح الخراب منتدياتها ونواديها وصالات العرض السينمائي ومسارحها وقاعاتها ، وضاعت خمس سنوات أخرى لم تزل البصرة جاثمة على خرابها ، لايستطيع الأعمار أن يعيد الاستلاب الإنساني الذي حل في نفوس اهلها ، ولايستطيع تبليط شارع الوطني أو الكورنيش أن يوفر سقفا للكادحين والفقراء ، ولايستطيع القضاء على المجموعات الإجرامية والإرهابية أن يعيد الأمان اليها ، لم تعد البصرة تلك المدينة التي يمكن أن تضاهي المدن التي تطل على البحار ، تحكمها قرارات تجعل كل أجنبي وكل شركة استثمار تبتعد عنها وتتهرب منها ، تحكمها أهواء ومزاجات ليس لها علاقة بالمستقبل كلها من أجل رضا حزب أو دولة ، وتضع خناجر وسيوف أمام مستقبلها .

لاتستحق البصرة كل هذا ، ولايمكن لصاحب ضمير أو وجدان يقبل بكل ما جرى عليها ، ولم تزل قابعة تحت ركام الخراب ، أطفالها السمر يجوبون الشوارع لكسب عيشة عوائلهم ، وانتشر الحزن بين بيوتها ، وصار القطط السمان يتحكمون في محلاتها وأهلها ، وأكتنز الناس الأسلحة التي لم تتوقف يوما واحدا عن المجيء من خاصرة العراق ، وصار الخوف بديلا عن الجاذبية ، وصار الموت علامة فارقة لكل من يهمس لتشخيص الخلل والخطأ ، وأغلقت كل معالمها الجميلة وأبدل ثوبها الزاهي والملون بثياب سود حزينة طول العام ، وصارت المواعظ أن يتقبل البصري الواقع ويحمد الله على ماموجود ، وعليه أن يتقبل قرارات الحاكم الذي يريد أن يحول بينه وبين حلم العراق ، فيعيد البصرة الى حضيرة المدن البائسة ، ماء أجاج وفقر ينتشر كالجراد وجوع يمر مع الأيام وآثار لمعالم بناها الطيبون والحريصون على وجهها الجميل .

البصرة التي تزين رأس الخليج مكسوة بغبار معارك الطاغية لم تغسلها الأيام ولا عمل حكامنا على تمشيط شعرها واستعادة زينتها ، ولا هدأوا روعها وأعادوا لها شيئا من حقوق أهلها .

البصرة التي تطل على الدنيا من منفذها البحري وتضخ النفط الخام عبر منافذها البحرية كل دقيقة ، يفتقر أهلها الى منتجات النفط في بيوتهم ، وكسرة خبز يقي بها المعدمون والجياع جوعهم ، ويكف المتسولون عن طلبهم تلك الحاجة .

البصرة التي كانت تعج بالنخيل والبساتين الزاهية تستورد اليوم خضراواتها من الجارة إيران ولم ترفع حتى اليوم جثامين النخيل المذبوح بسيف الطاغية ، المتاريس التي استعملها في حربه المجنونة ، صارت تستورد التمر من دول الجوار .

البصرة التي يطرز وجهها الجميل نهر العشار ، لم يزل مطمورا بائسا تتجمع فيه الأكياس الفارغة والمخلفات التي تلقيها الناس متوقفا عن الجريان ، لا أثر للمد والجزر فيه ، ولم يعد جميلا يتغنى به الشعراء .

البصرة التي تنام على نهر من النفط ويلتقي عندها الفرات ودجلة ، تتحسر حتى اليوم على شط العرب الذي تنتشر فيه الملوحة .

البصرة التي كانت مشتى وملاذا للهاربين من مدنهم وسلطاتهم ، صار فيها الهروب علامة بارزة بعد رحيل أيامها الحلوة ، وعافها اهلها من اليهود والمسيحيين والمندائيين ، وصار فيهم عمل أهل الديانات الأخرى مجازفة وخطورة ، بعد أن كانت تعج وتعتز بهم .

البصرة التي نريدها للعراق ولجميع أهل تلك الديانات العريقة ، صارت تحت طائلة قرارات الحكومات الخارجة عن سلطة الحكومة وتحت شفرات سيوف الميليشيات الخارجة عن جيش الدولة .

والبصرة التي تسوق النفط الخام للعالم ، صارت منهوبة مفاتيح أنابيبها ووارداتها في جيوب النهابين والسراق ، والدولة لانعرف ناهبها الحقيقي ولا الكميات المسروقة ولا الجهات التي تشتري النفط المسروق ، كما لم نتعرف على حقيقة الاتهامات التي طالت جميع المسؤولين من دون استثناء ، فالكل متهم ، والاتهامات متبادلة والقضايا مغلقة ولا أثر لها ، غير أن الثابت أن النفط والمال العام مسروق بالتأكيد .

البصرة ملوثة اليوم فوق ضيمها ، وممتلئة بالألغام غير المنفجرة فوق فقرها .

البصرة تحتاج شجيرات الأثل فيها الى زخات من مطر السماء ، بديلا عن زخات الرصاص وقرارات تمنع عنها الحياة وتقسر الآخرين على القبول بها دون حق الاعتراض .

البصرة تمنع فيها الموسيقى والغناء ، فتخرس مراكبها ومشاحيفها وتصمت مجموعات أهلها وتنطفئ فوانيسها ليلة الجمعة ، ولم تعد تلك الهلاهل والضحكات تنطلق من تجمعات أهلها في الربيع ، ومن الزوارق السابحة في شط العرب ، أو عند مشارف الأثل حيث تتجمع الناس ، أو عند مسنات النهر في بساتين التنومة ، ويتحول ((تومان)) الى قارئ مقاييس للحزن .

البصرة اليوم تشرع فيها القوانين وفقا لمزاج الحاكم لااعتبار للدستور في قراراته ، ولا اعتبار لنص المساواة بين المواطنين من دون تمييز بسبب الدين أو المذهب ، ولاقيمة للمواطن مادام يتلقى القرارات الأوامر فالكل يخضع لواحد .

هل يمكن أن تعود أيام البصرة البهيجة ؟

هل يمكن أن تعود البصرة مرتعا لكل أهل الديانات الأخرى ؟

هل يمكن أن تعود البصرة كما كانت قبل خمسين سنة ؟

لم يعد لنا أن نحلم ببصرة المستقبل ، فقد انتشر الجدري في وجهها الجميل ، وانتشرت البثور على تخومها وحدودها ، لم يعد لنا أن نحلم ببندقية الشرق ورئة العراق على الخليج ، ولم يعد لنا أن نحلم بالبصرة تزهو بالناس على اختلاف مللهم وجنسياتهم وأديانهم وألوانهم ، ولم يعد لنا أن نحلم بالبصرة التي تضاهي مدن الخليج العامرة ، زادتها سنواتها الأخيرة حزنا وعذابا ، ولم تعد تتسع مقابرها لجثث المذبوحين والمقتولين غدرا ، لم تعد للزهور مكانا في حدائق الأندلس ، وعادت البصرة بحاجة ماسة للماء الصالح للشرب ، وعادت مرة أخرى تعطي ولا تأخذ ، لايمكن لأي شكل من أشكال أنظمة الحكم أن يعيد لها رونقها وضحكاتها وسعة صدرها وفي نخيلها ، ولم تعد حلاوة خوز لها طعم طيب ولذيذ ، البصرة تريد حكاما من أهلها وليس على أهلها ، تريد أن يكون المسؤول خادما لها وليس سلطانا عليها ، البصرة تريد الموظف محكوماً بقانون الخدمة المدنية وليس حاكما مطلقا عليها ، البصرة تريد أن تستعيد أيامها الزاهية ، فهل يمكن أن نتعاون معها من أجل الإنسان والعراق؟.

الحياة الاجتماعية في المدينة وجدوى المعالجات العمرانية

نجم عبد الكناني
خبير تصاميم

لقد أدى تزايد التوجه نحو سكنى المدن وما تمخض عنه من نتائج مختلفة إلى ضرورة الاهتمام بدراسة الحياة الاجتماعية في المدينة المعاصرة وفهم المتغيرات التي تؤثر فيها وفحص مدى قدرة المدن الحالية على الارتقاء بساكنيها ضمن جدلية العلاقة بين الإنسان وبيئته .

حيث ميز العلماء والباحثون ، على أساس البيئة التي تعيشها الجماعات ، بين نمطين من الحياة الاجتماعية (حياة المدينة وحياة الريف) ، وما يتبع ذلك من اختلاف في طبيعة الحياة الاجتماعية وشكل التفاعل الاجتماعي في كل منهما ، لذا فقد خضعت الحياة الاجتماعية في النمطين إلى البحث والمقارنة ،وأسهب بعض المختصين في ذكر ميزات وعيوب كل نمط والمفاضلة بينهما ، حيث توصف العلاقات في الريف بأنها عميقة وتتم وجها لوجه ، وهناك شبه اتفاق على وصف الحياة الاجتماعية فيه بالتماسك وقوة الروابط إلا أن الاختلاف والتضارب يأتي عند تقويم الحياة في المدينة ، حيث تتراوح بين ممتدح لتلك الحياة ومستاء يلصق بها شتى الأوصاف والنعوت.

والحقيقة التي يجب تأكيدها في البداية أن الحياة الاجتماعية عموما وحياة مجتمع المدينة على وجه الخصوص ليست بالأمر السهل تحديده ، إذ لا يوجد اتفاق على شكل محدد لها، ولا يمكن القول بصلاحية نمط معين للإنسانية دون سواه ، وليس بمقدور أي من العلماء والمفكرين والباحثين تحديد حياة اجتماعية بإطار معين والادعاء بأنها تصلح لكل مدينة أو لكل مجتمع ، ومصدر الصعوبة يعود إلى أن المجتمع الإنساني عبر مراحل تطوره ومسيرته قدم نماذج متعددة وصياغات مختلفة للحياة تنسجم مع خصوصية المجتمعات ضمن السياق العام للزمان والمكان .

والمدينة باعتبارها شكلا متقدما للتجمع البشري قد صاغت نمطاً للحياة يتماشى مع أساسها الاقتصادي وهيكلها العمراني وطبيعة النظام السياسي والديني ، يعد نمطا جديدا ومغايراً لما هو شائع في المجتمعات القروية السابقة ، ولكن على الرغم من ذلك ظلت المدينة في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية فيها مجرد قرية كبيرة أو امتداد لحياة القرية ، وقد أسهم الموقع لقرية من القرى تمتلك مواصفات قرية رائدة بتأهيلها لتصبح مدينة تلقي بظلها على القرى المحيطة بها وتكون بمثابة نواة للنشاطات التجارية والسياسية والدينية ، والمدن العراقية في الجنوب والوسط خير مثال ودليل أكيد على أهمية دور ووظيفة المدينة وعلاقتها بالقرية .

ومن المعروف في مجال تخطيط المدن ، أن شكل المبنى وعمارته لهما تأثير على شخصية الساكنين ، وهناك تفاعل بين الإطار العمراني والإنسان وكثير ما يتبادل الإنسان التأثير مع البيئة الفيزيقية التي يعيش فيها ، لذلك كانت اغلب المعالجات لحل مشاكل المدينة معالجات عمرانية ، والسؤال الذي يفرض نفسه :هل أن الحياة العمرانية محددة بإطارها العمراني ؟ آم أن تناول هذا الإطار هو الأكثر وضوحا وبروزا للعيان ، وبالتالي توضع المعالجات على أساس منه ، وهل نحن على حق في أن نرجع كل المشكلات في المدن إلى الإطار العمراني ونعتقد بان المعالجات في هذا الجانب كفيلة براب صدع العلاقات الاجتماعية ومعالجة مشكلات المدينة؟

إننا لا نقصد بهذه الأسئلة الانتقاص من قدر المعالجات العمرانية أو من تأثير الهيكل العمراني ، لكن وضع المسألة بهذا الشكل فيه الكثير من النقص، ما يؤدي إلى تحميل المعالجات اكثر مما تحتمل ويحجب عنا نجاحها ، فلو كانت واضحة وعلى أساسها يتم قياس درجة النجاح أو الفشل ، لتم فهم تأثير الإطار العمراني على الإنسان في المدينة بشكل واضح ودقيق.

فمن الممكن أن نلمس نجاح المعالجات العمرانية في إيجاد صيغة عملية للعلاقة بين استعمالات الأرض في مدينة معينة أو تقليل كثافة المرور وخلق انسيابية عالية في حركة السيارات وجوانب أخرى كثيرة ، ولكن على الرغم من ذلك تعجز المعالجات عن حل عدد من المشكلات الحضرية ولاسيما ما يتعلق منها بالجانب النفسي والاجتماعي ، ليس بسبب القصور الكامن فيها وحسب ، وانما أيضا لوجود خلل في المؤسسات الاجتماعية ، ما يكون من المتعذر استنباط حلول عمرانية لمشكلات المدينة . بل أن الإصرار على هذا النمط من الحلول يبعدنا عن أيجاد الحل المناسب، فيجب في هذه الحالة أن يتجه التفكير إلى علاج الخلل الذي يعتري المؤسسات الاجتماعية وقد تكون المعالجات العمرانية جزءاً من العلاج .

ونتيجة لصعوبة عزل المشكلات على أساس جذرها الاقتصادي أو العمراني أو المؤسساتي ، فإننا لا نقترح إيجاد حلول لمشكلات الحياة في المدينة على أساس الفصل بين الجذور بل نؤكد أهمية الحلول الشاملة والمعالجات التخطيطية التي تحسب فيها كل المتغيرات العمرانية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والنفسية والجمالية ، ثم فهم خصوصية كل مدينة ليتم تأطير المعالجات بهذه الخصوصية ، ولاشك في أن النظر إلى المشكلات الحضرية على ضوء هذا الفهم ومن زاوية هذه المتغيرات يعطي الحلو المقترحة إمكانية عالية في حل مشكلات الحياة في المدينة ولمديات ابعد واكثر عمقا .

ولعل أن من أهم أسباب اقتصار المعالجات في الدول النامية عموما (واغلب البلدان في مرحلة التحول الحضري) على الجوانب العمرانية ، التوسع الهائل للمدن وبسرعة كبيرة ما يجعل السلطات المحلية في هذه البلدان تواجه مشكلات جدية مثل الاتساع بمساحات المدن والإسكان ومد شبكات الطرق وتصريف المياه ، أن هذه المشكلات الفنية تحتاج إلى معالجات فنية وعمرانية ، ومما يزيد من صعوبة مواجهتها ضعف الإمكانات المادية وافتقار اغلب المدن إلى التمويل الكافي للإيفاء بالتزاماتها مما يضطر إلى مواجهة مشكلات جزئية تكون الآثار المترتبة على معالجتها مستقبلا آثارا سلبية كبيرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك إهمال دراسة الجوانب الاجتماعية تتضح لنا أبعاد المشكلة الحقيقية للمدن المعاصرة . أن الملاحظة الدقيقة المتبصرة لحياة سكان المدن تعطي انطباعا بفتور العلاقات الاجتماعية وشيوع الفردية وضعف المعرفة الدقيقة وانعدام المشاركة الوجدانية العميقة ، على الرغم من سعة الاتصال بين الأفراد والجماعات وما لهذا الاتصال من أهمية كبيرة في توسيع دوائر الاهتمام والمشاركة والولاء من حدودها الضيقة في الجماعة الصغيرة إلى حدودها الواسعة في المجتمع والإنسانية .

وإذا كان هذا التشخيص يقترب إلى حد ما من الحالة التي عليها حياة المدينة ، فانه لا يشكل رغبة في العودة إلى الولاءات الضيقة أو الانكفاء بحدود الجماعات الصغيرة ، بل القصد هو الحرص على توافر قدر مناسب من التفاعل ضمن الوحدة الصغيرة في المدينة (المحلة السكنية) بحيث يتحقق التوصل إلى حياة مشتركة مثمرة ومنسجمة من الناحية النفسية والاجتماعية ، وألا يؤدي توسيع دوائر الاهتمام والمشاركة إلى تجاوز أو تحطيم العلاقات في الجماعات الصغيرة .

وهناك الكثير من المؤثرات التي تحدد طبيعة التفاعل ونوع العلاقات داخل الجماعة ، نذكر ثلاثة عوامل رئيسية منها هي :.

❖طول المدة التي يقضيها الأفراد داخل الجماعة ، ففي الجماعة الصغيرة تشكل العلاقات ببطء ثم ما تلبث أن تتوطد بسبب التقادم .

❖القرب المكاني ، إذ أن الوجود في مكان صغير محدد ييسر عملية الاتصال والتفاعل مع الآخرين وجها لوجه .

❖صغر العدد ، فالجماعة الصغيرة ذات العدد المحدود تتيح فرصة اكبر لأعضائها في توثيق المعرفة الشخصية .

ويؤيد (Festinger) الأثر الكبير للقرب المكاني وصغر العدد في تكوين الصلات عند دراسته لمنطقة سكنية صغيرة ، إذ يقول بان الارتباطات بالمنطقة السكنية تعمل كقنوات اتصال تجري فيها المعلومات والآراء ، وهذه العملية من شانها أن تجعل حياة الجماعة اكثر تماسكا ، كما يوجد افتراض عام في تخطيط المدن وبنائها ، وهو أن الاتصالات الاجتماعية الأولى وبالتالي نواة الحياة الاجتماعية تكون في المحلة السكنية ، وللمحلة تأثير كبير في تحديد خصائص الصلات ، لكون الإنسان يمضي وقتا طويلا من حياته في المسكن .

ومن هنا تتجلى لنا أهمية الحفاظ على علاقات الجيرة وتنميتها عن طريق جعل الهيكل العمراني للمدينة والمنطقة السكنية يشبع الحاجات الإنسانية ، ولاسيما الحاجات الاجتماعية مثل الأمان والتماسك الاجتماعي والشعور بالمسؤولية إزاء الجماعة والمجتمع ، وإيجاد خصائص عمرانية واجتماعية مميزة للمناطق السكنية وان يتضمن تخطيطها محاولة إقامة جزء من الكل اقل تعقيدا من شانه تقديم الراحة للساكنين وتوفير إمكانية التفاعل المباشر ، لإعادة الشعور بالتعاون وروح الجماعة في الحياة الحضرية ، ومن الضروري أن تكون المعايير العمرانية التي نعتمدها في التخطيط الحضري ذات صفة دينامية ، وان تستند إلى الفهم العميق للمجتمع والتحولات الجارية فيه ، بحيث تكون ملبية لحاجات أفراده النفسية والاجتماعية ، وان تتعدى أهداف التخطيط مسالة تنظيم استعمالات الأرض إلى إقامة البيئات السكنية المدروسة والملائمة صحيا واجتماعيا واقتصاديا لفئات من الأفراد حيث تمكنهم من تأدية أدوارهم بنجاح ويساهم كل من موقعه في تقدم مجتمعهم ورقيه ، وان يقاس نجاح التخطيط في قدرته على عكس الأنماط الاجتماعية للمجتمع وأبرازها .

وبالنظر لأهمية المدينة في المجتمع الإنساني ولكثرة المشاكل التي تواجهها ونتيجة للاتساع في حجمها والاتجاه نحو سكنى المدن ، فلابد أن تأخذ الحياة الاجتماعية اهتماما اكبر من لدن المخططين والمهندسين والباحثين ، وان تتجه الدراسة إلى فهم المتغيرات التي تؤثر في المدينة ، وان تكون من أولويات التخطيط الحضري ،المساهمة في توجيه وتهذيب سلوك السكان وبناء شخصية الحضري . وفحص مدى قدرة المدن الحالية على الارتقاء بانسانها . ولكي نحقق ذلك علينا أن نعرف كيف يفكر ساكن المدينة المعاصرة وكيف يقيم علاقاته مع جيرانه وطبيعة تعامله مع الوقت وطلبه على السلع ومساهمته في تطوير ذاته واستثماره لأوقات الفراغ وممارسته للنشاطات الترويحية ومدى مشاركته بالنشاطات الاجتماعية ، بمعنى المشاركة الإيجابية لرفع مستوى الجماعة ، لتتسنى لنا على ضوء ذلك معالجة ما يمكن أن ينشا من مشكلات حضرية واجتماعية وتقليل التكاليف الاجتماعية لعملية التحضر السريع والواسع .

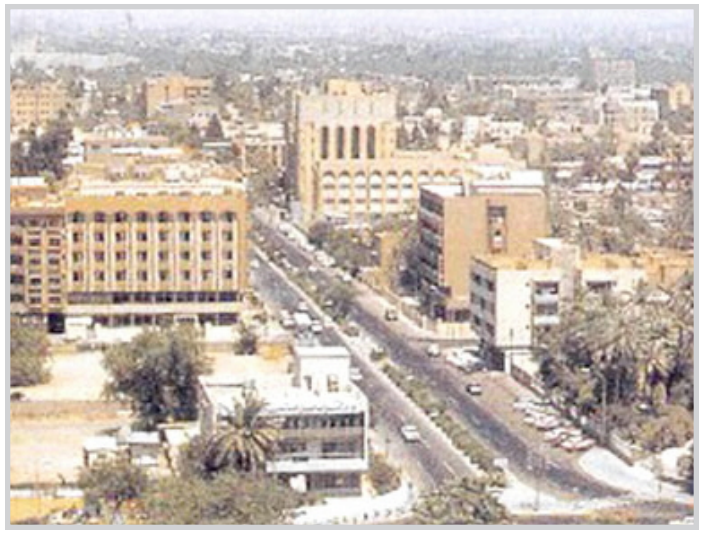

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب اراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. لا يزيد عدد كلمات المقالة على ٧٠٠ كلمة
٢. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة
٣. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
Opinions112@yahoo.com